

المولـــد النبوي .. عـــــن الثورة

المــتدفــقة مــن قلب النور

- . . .
- • •
- . . .



المولد النبوى .. عن الثورة المتدفقة من قلب النور



رضوان قطنانى

في يوم المولد النبوى الشريف، الثاني عشر من ربيع الأول عام 1444 مجرية، كان ثلاثة شبّان فلسطينيــــين من سميّى نبيّهم يُحيـــــون ميلاده حقيقةً في الوجود، كما هو على حقيقته يوم أقبلَ إلى الدنيا، نورًا تنثال من قلبه الثورة والقتال، والقيام بالواجب إلى أقصاه، دمًا .. ورحيلًا من الدنيا.



لم تنس السنوات التي جاوزت الـ 1400 عام محمد لــــدادوة، وأحـــمد ضراغمة، ومحمود الصوص، ورابعهم عادل داود، المعلى الأصيل الذى بثه نبيّهم في الوجود، وفي المؤمنين به وبرسالته. بــــل لعل مؤلاء الأربعة وأمثالهم، ومم يسكبون سائلهم الأحمر في ساحة القتال، يجدّدون المعنى الذى قد تعلوه طبــــقات غبار تقادم العمر، وتطاول العمد عن الزمن الأول، أو طبقات غبار الركــــون والتبديل والموى والضعف، يستخرجون المعنى بيدمم المقاتلة، ويغسلونــه بدمهم النقى، فيرجعُ إلى عهده الأول، ويشرقُ في المؤمنين كـــما هو .. ثورةً .. ثُورةً.



الجذريّة .. على طريق الثورة



يقول النبى "صلى الله عليه وسلم": "إنى .. دعوة إبراهيم وبشــــارة عيسًى ورُوَّيا أُمِّى الَّتِي رأَتْ حِينَ وضَعَتْنِيَّ أنَّه خَرَجِ مِنها نورٌ أَضَاءَتْ لهــا منه قصورُ الشَّام". لم يصل نور محــــمد إلــــى الشام إلا يوم أضاءَت سيوف أصحابه، ولم تضئ سيوف أصحابه إلا يوْمَ ورثـــوا عنه جذريّة ً ضروريةً للاستمرار والمواجعة والقتال.



حين أُقبل سادات قريش على النبي، يَعرضون عليه وهو فـي أوّل أمره، ضعيفًا وحيدًا، كلّ ما يُصرفَ الرجَل عن مبتغاه، مـــــن مــــال



ومنصب ونساء، لم يَكن محمدُ يُثبت -وهو يَرفضُ عروضهم- طدق نبوّته فحسب، بل كــــــــــان كذلك يُرسي جذريّته ومفاصلته ويبثّهما في المؤمنين من بعدة. إنه لا يصلح لمن يحمل الفكرة أن ينزل عنها من أجل القرّض، وإنه "ليس بين الحق والباطل إلا الباطل، ولا ينزل الحق قدر إصبـــع الا خرجَ من صفته"، وأنّ "أن أهلك دونه" أهون من أن يَترك الرجل النبي -والمؤمنون من بعده-أمرهم. وأنّ الملاكَ دونه مصيرٌ مقبولٌ إذا لم يتحصّل ظهوره في الأرض، وأنّ المعيار في هـــــذا كلّه أن يظلّ هذا الأمر هو هو على طول زمن الاختبار المسمّى "الدنيا".

بشَّر محمدٌ أعداءَه بأن المكان الوسط بينه وبينهم وَهْمٌ، وهمٌّ في هذه اللحظة "لا أعبــــدُ ما تعبدون"، ووهمٌ في الزمن القادم "ولا أنا عابدٌ ما عبدتم"، وهذه الجذرية ركن الثورة الأول، أن تتمترس خلفَ مقولتك وحقَّك، وأن يرى عدوّك صلابتك، وأن يقطعَ أمله منك، من أن تنزل له، أو تكفّ عنه، أو تغيّر موضع قدميك مع تبدّل الأحوال والدنيا. ومن هذا الموضع انطلق الرّسول.

ِ ثورة الواجب المقدس

ثمّ رأى النبي الواجبَ ولم يرَ سواه، وهو الذي يروي عن أنبياء أصحابٍ له يأتون يوم القيامة ومع واحدهم الرجل أو الرجلان، أو ليس معه أحد ُ. فكان الواجب عنده، كما كان عند الأنبياء مصمن سبقوه هو التّكليف، وكذلك ينبغي أن يكون عند أتباعهم. والنّفْس البشرية متعلّقـــة بالمآل والثمرة، غيرَ أنّ الدين الذي يَعد متّبعيه بالتمكين، لا يعد واحدهم بهذا، فإنه قد يولد ويـــقاتل ويموت، ثمّ لا يرى من التمكين المأمول شيئًا، فكان وعد التمكين هذا في حقيـــــقته لا وعدًا لأفراد الدين، بل لجماعته، أما كلّ واحد منهم فهو مبتليّ بالواجب، ومـــــوعود بثمرة يقينية ليست من الدنيا. ومن هذا حديث بيعة العقبة "فقُلْنا: يا رسولَ الله، عَلامَ نُبايِعُكَ؟ قال: تُبايعوني على السّمعِ والطاعة في النّشاط والكَسَلِ، وعلى النّفَقة في العُسْرِ واليُسْرِ، وعلى الأمْر بالمَعْروف، والنّمْي عن المُنكَر، وعلى أنْ تَقولوا في الله لا تَأْخُذُكُم فيه لَومَةُ لائمٍ، وعلى أنْ تَقولوا في الله لا تَأْخُذُكُم فيه لَومَةُ لائمٍ، وعلى أنْ تَقولوا مَي الله لا تَأْخُذُكُم فيه لَومَةُ لائمٍ، وعلى أنْ تَقولوا مَي الله لا تَأْخُدُكُم فيه لَومَةُ لائمٍ، وعلى أنْ تَقولوا مَي الله لا تَأْخُدُكُم ويا لَا قَدِمْتُ يَثرِبَ، فتَمْنَعُوني ممّا تَمنَعُون منه أنفُسَّكُم وأزْواجَـــــكُم وأَبْنًاءكــم ولكم الجَنَة!" ولكم الجَنَة!

ومع رؤية الواجب تولد الثورة، والتَّورة طريقٌ قوامه العطاء والتضحية، وليس يَبذُل الرِّجــل كـلَّ شيء إلا إذا استغرق في رؤية واجبه حتى ذَمَل عن رؤية حظَّ نفسه، وعن الثَّمن المُراقِ في سبيل قيامه بواجبه، ثمّ ذهل عن الثَّمرة الدنيوية، عن سؤال الثمرة من حيث هو، فهو يعطي عـطاء من لا ينتظر الجزاء "لا نريد منكم جزاء ولا شكورا". '

تنعدمُ في الحالة الفلسطينية مخايل الجوائز الدنيوية، يحلُم الناسُ بالتحرير لا لأن في التوازنــــات والسياقات الأرضية شيئاً يبشّر به، بل العكس مو الحاصل، تنقطع الأسبــــــــاب عن الفلسطينيّ



المؤمن، وتنعدم الأداة في يديه، ويُطوِّقُ بالأعداء، وتتحالف الدنيا ضدِّ حقه "وسوى الـــــروم خلف ظهره روم"، ثمّ يقوم "وما في الموت شكُّ لواقف"، لا لأن الردى ينام عنه، ولكنّه "يــرى مصرعه ثمّ يغذّ إليه الخطى"، ينهضُ بالواجب وحده، إرث نبيّه، بالواجب الذي اتَّقد فـــــي النفس فصار ثورةً يصنَغُها من الحجارة المبثوثة في الأرض، والرّصاص المنتهبِ من بين شدقي التنين.

في يوم مولد النبي، كانت جنين تنبت أبناءَها الثائرين. ولا يولد الثائرون بلا سقاء، وقـــد جَعلَ محمود وأحمد دمهم سقاء الثورة والثوار، كما جعلَ بلال وياسر وحمزة والصحابة الأوائـــل دمهم سقاء الثورة التي انطلقت يوم ولد محمد "طلى الله عليه وسلم". وها هو حمزة فارس الإسلام وناصره يقتسم سيادة الشهداء مع محمود وأحمد ومحمد وعادل، وهم يقومــون لأساطين الجور والظلم في عصرنا، يرجون تغيير منكرهم بأعظم مقامات التغيير الإيمانية، باليد والجهاد: "من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لــــم يستطع وبلقال مــن أفعال الثورة؛ والإيمان، فإذا عظم إيمان المرء في قلبه عظيمٌ بين التغيير بما هو فعلٌ مـــن أفعال الثورة؛ والإيمان، فإذا عظم إيمان المرء في قلبه عظمت ثورته، وانطلق إلى التغيير الفعلي باليد، وترث الثورة التي في القلب والجوارح النفس إيمانها فيرتقي بارتقائها، وقد قيل إن أعــــظم محاض التربية خنادق القتال.

الثورة .. وجه الرحمة المشرق

ولطالما كانت ثوريَّة هذا الدين، وفعله القتاليِّ واحدةً من مطاعنِ أعدائه عليه، إذ يرونـــــــــــــما منافيةً لدعوى الرحمة فيه، غير أنَّ نظرةً أعمقَ تَكشفُ عن كمون الرحمة فـــــــي الثورة، لا من جهة أن القسوة زجرُ ضروريُّ في بعض حالاتها، ولا من جهة أن الوضع الندى في موضع السيف مضرُّ"، لا من هاتين الجهتينِ فحسب، بل من جهة أن الرحمة في ذاتها متطلبةٌ للشدة والثورة، فإنّ رحمة المظلوم أن يظلَّ ضعيفا منتهكًا، ورحمةَ الحقِّ أن يظلَّ معنيَّ منبوذًا، ورحمة الخلقَ أن يظلَّ معنيً منبوذًا، ورحمة الخلقَ أن يظلَّ عبيدًا للطاغوت والاستكبار، تورثكَ الثورة وتوجبها عليك، فإن غابت الثورة والحال هي الحال فبأيَّ شيءٍ تستدلَّ على رحمتك؟! فالثورة هنا نتيجة الرحمة الطبيعية، وصنوها المـــلازم الذى لا بدّ منه.



احتفَّل الفتى بالمولد، أحياهُ كما يجبُ أن يكون إحياء الأحداث العظيمة. وقد كـــــان المولد في تسعينيات القرن المَاضي موعدًا من مواعيد احتفال الحركة الإسلامية التي امتشقت الســـــلاح وقرّرت القتال، وتفرّدت به في ذاك الزمن مانعةً الانحدار إلى القاع، كما يفعل كلّ مقاتل الآن.

وفي اختيار المولد النبوي موعدًا لإقامة حفلٍ مليء بالمعاني الجهادية، توفيقُ لا تخطئه عيــنُ بصيرة، يومَ يُمزَحُ المعنى الدَّعوي الصرفَ بالمعنى الجهادي، لا مزجًا متعسِّفًا بل معنى مستدعيًا حقيقةَ التصاقهما في الواقع.

إنّ إعادة استذكار المولد النبوي بهذا الوصف والمعنى، حدثًا مؤسّسًا لحركة تاريخيةً عظيمــــةً كان قوامها الجذريّة والواجب وإنكارُ المنكر والسعيُ في تغييره بكلّ وسيلة، بل بخلق الوسيلة من العدم، هو من أعظم ما يُمكنُ أن يَفعلُهُ مؤمنِ لذكرى نبيّه، وهُو مــــــا يفعلُه المقاتلُ والشهيدُ حين يَغفل أو يُغفل النقاش في هامش الذكرى العظيمة، ويتمثّل نبيّه في لحظة من الرحمة والثورة، وينشُر ذكراه في القلوب والعقول، بالحجارة والدم والرصاص.

